الفصل الثالث

مسجد الأزهر الجامع

١ — تاريخ مسجد الأزهر.

٢ — تخطيط المسجد الفاطمى.

٣ — عناصر المسجد الفاطمى المعمارية.

٤ — العناصر الزخرفية العتيقة.

الفصل الثالث

مسجد الأزهر الجامع

١

تاريخ مسجد الأزهر[١]

بدئ العمل فى المسجد الجامع الأزهر يوم السبت ٢٤ جمادى الأولى من سنة ٣٥٩هـ / ٤ أبريل ٩٧٠م وتم البناء فى شهر رمضان من سنة ٣٦١هـ، وأقيمت به أول صلاة للجمعة فى اليوم السابع من ذلك الشهر ٢٢ يونية ٩٧٢م. وكان بالمسجد نقش من الخط الكوفى «بدائرة القبة التى فى الرواق الأول، وهى على يمنة المحراب والمنبر، ما نصه بعد البسملة: مما أمر ببنائه عبد الله وليه أبو تميم معد الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه (الطاهرين) وأبنائه الأكرمين على يد عبده جوهر الكاتب الصقلى وذلك فى سنة ستين وثلثمائة»[٢]. وكان هذا المسجد عظيم الشأن منذ إنشائه، وارتبط تاريخه بتاريخ القاهرة، ولم تزل العناية به وبعمارته مستمرة حتى وقتنا هذا.

لم تمض أربع سنوات على إنشاء المسجد الأزهر حتى أمر الخليفة العزيز بالله بن المعز لدين الله بإصلاح ما كان من عمارته يتطلب الإصلاح والتجديد. ثم جدد الخليفة الحاكم بأمر الله مئذنته، فى سنة أربعمائة / ١٠٠٩م، أو حوالى تلك السنة. وتخلف من ذلك العهد باب خشبى من مصراعين محفوظ بالمتحف الإسلامى، نقشت عليهما كتابة كوفية على كل مصراع سطران منها، ونصها «مولانا أمير المؤمنين، الإمام الحاكم بأمر

---

(١) لخص (على) مبارك تاريخ المسجد الأزهر فى صفحات ١٠ إلى ٣٦ وما بعدها من الجزء الرابع من كتاب «الخطط التوفيقية»، وذلك نقلاً عن المقريزى وأبى المحاسن والسيوطى وابن إياس والجبرتى. كما ذكر أطرافاً من هذا التاريخ فى فقرات متفرقة من أجزاء كتابه الأخرى.

(٢) انظر المقريزى، «الخطط»، جزء ثان، صفحة ٢٧٣، وصفحة ٩٥ من الجزء الخامس من «مرجع الكتابات العربية» لمؤلفيه (كومب) و (سوفاجيه) و (فييت).

الله، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه». وكذلك جدد المستنصر بالله المسجد أثناء خلافته ٤٢٧هـ إلى ٤٨٧هـ / ١٠٣٦م إلى ١٠٩٤م، وذلك فى سنة لم يحددها المؤرخون. وأغلب الظن أن عمارة المسجد وزخرفته ظلت حتى ذلك التاريخ محتفظة بحال إنشائها، لم يطرأ عليها تغيير بالإضافة أو الهدم، وأن الأعمال التى أجريت فى المسجد، طيلة المائتى سنة الأولى من حياته، اقتصرت على تدعيم مبانيه وترميمها وتجديد زخارفها.

وقد أسفرت بحوث علماء الآثار عن التأكد من أن الخليفة الحافظ لدين الله أجرى فى المسجد أعمالاً هامة أضافت إليه عناصر جديدة فى التخطيط والعمارة والزخرفة. كما أن المقريزى ذكر أن هذا الخليفة، الذى ولى الخلافة، فى المدة من سنة ٥٢٦هـ إلى سنة ٥٤٤هـ / ١١٣١م — ١١٤٩م، «أنشأ فيه مقصورة لطيفة بجوار الباب الغربى الذى فى مقدم الجامع بداخل الرواقات»[(١)]. وكان الآمر بأحكام الله قد أضاف إلى المسجد محرابًا خشبيًّا ترك عليه نقشا بالخط الكوفى، سجل عليه تاريخه، سنة ٥١٩هـ / ١١٢٤م[(٢)]، وهذا المحراب محفوظ بالمتحف الإسلامى.

ثم مرت بالأزهر بعد ذلك فترة انطوت فيها ذكراه. ذلك أن السلطان صلاح الدين الأيوبى أمر بأن تبطل فيه صلاة الجمعة، اكتفاء بإقامتها فى «الجامع الحاكمى»[(٣)]، واستمر الأزهر فى ظل النسيان منذ سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٩م، وحتى سنة ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م. وكان السلطان الظاهر بيبرس قد تولى الحكم، فعاون على تجديد المسجد، وشرع فى عمارته، فعمر الواهى من أركانه، وبيضه وأصلح سقوفه وبلطه وفرشه وكساه..

---

(١) انظر المقريزى، «الخطط»، جزء ثان، صفحة ٢٧٥. وهو باب كان مفتوحًا فى الجدار الغربى لبيت الصلاة. تراجع الآراء الخاصة بتعريف اتجاهات جدران المساجد وواجهاتها فى الحاشية رقم ٤ من كتاب المؤلف «مساجد القاهرة ومدارسها - المدخل».

(٢) جاء فى الكتابة الكوفية التى على هذا المحراب، بعد البسملة وآيتين من القرآن الكريم، النص التالى: «مما أمر بعمل هذا المحراب المبارك (صحه المبارك) برسم الجامع الأزهر الشريف بالعزبة القاهرة مولانا وسيدنا المنصور أبى (صحته أبو) على الإمام الأمر بأحكام الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين ابن الإمام المستعلى بالله امير المؤمنين ابن الإمام المستنصر بالله امير المؤمنين صلوات الله عليهم أجمعين وعلى آبائهم الأئمة الطاهرين بنى الهداة الراشدين وسلم تسليمًا إلى يوم الدين فى شهور سنة تسع عشرة وخمس مائة الحمد لله وحده». انظر صفحة ١٤٩ من الجزء الثامن من كتاب (كوهب) و (سوفاجيه) و (فييت)، «مرجع الكتابات العربية».

(٣) انظر المقريزى، «الخطط» جزء ثان، صفحتا ٢٧٥ و ٢٧٦.

واستجد به مقصورة حسنة، وأعاد إلى الأزهر خطبة الجمعة، وأخذ المسجد منذ ذلك التاريخ «يتزايد أمره حتى صار أرفع الجوامع بالقاهرة قدرا»[1].

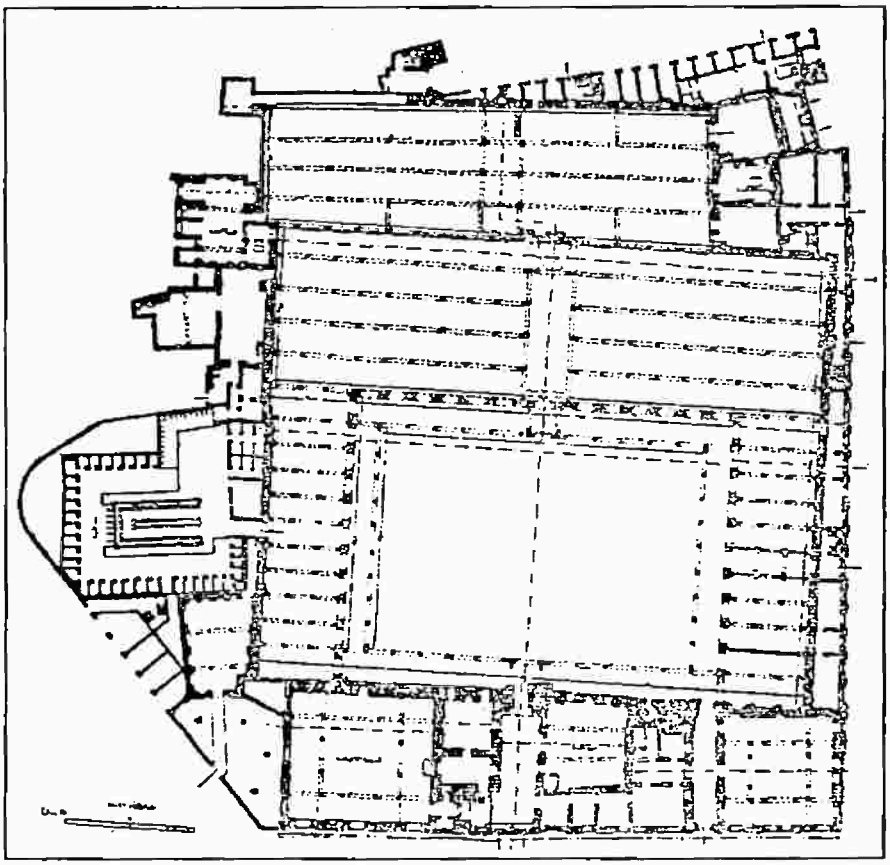

شكل (٣) — رسم تخطيطى لمسجد الأزهر الجامع فى منتصف القرن العشرين (عن مصلحة الآثار)

(١) انظر القلقشندى، «صبح الأعشى»، جزء ثالث، صفحة ٣٦٤. وسأشير إلى اتخاذ الأزهر دارا للعلم والتدريس فى الفصل الخاص بنشأة المدارس فى الجزء الثانى من هذا الكتاب.

وأصاب المسجد زلزال فى سنة ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م، فى عهد السلطان الناصر محمد ابن قلاوون، فتولى الأمير سلار عمارته، وجدد مبانيه وأعاد ما تهدم منها[١]. وذكر المقريزى أن عمارة المسجد جددت بعد ذلك مرتين مرة فى سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م ومرة فى سنة ٧٦١هـ / ١٣٥٩م، وأصلحت جدران المسجد وسقوفه «حتى عادت كأنها جديدة»[٢].

وقد أضيفت إلى مبانى المسجد وعمارته الفاطمية مدرستان، تقع إحداهما إلى يمين الداخل من الباب الشمالى للأزهر، وهى المدرسة الطيبرسية التى أنشئت فى سنة ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م[٣]، وتقع الثانية إلى يسار الداخل من هذا الباب، وهى المدرسة الأقبغاوية، وقد أنشئت فى سنة ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م[٤]. شكل (٣).

وهدمت مئذنة الأزهر فى سنة ٨٠٠هـ / ١٣٩٧م. «وكانت قصيرة، وعمرت أطول منها»[٥]، فكأن المئذنة الجديدة بنيت على أساس المئذنة القديمة، ولكنها مالبثت أن هدمت هى الأخرى بعد ذلك بسبع عشرة سنة، وأقيمت بدلاً منها مئذنة جديدة بنيت من الحجارة، «على باب الجامع البحرى بعد ما هدم الباب وأعيد بناؤه بالحجر، وركبت المنارة فوق عقده»[٦]، ولكنها مالبثت أن هدمت كذلك، فأعيد بناؤها فى سنة ٨٢٧هـ /١٤٢٠م[٧].

وأضيفت إلى عمارة الأزهر كذلك مدرسة ثالثة هى المدرسة الجوهرية، وهى التى أنشأها الأمير جوهر القنقبائى قبيل وفاته فى سنة ٨٤٤هـ / ١٤٤٠م[٨]. وأقام السلطان قايتباى فى سنة ٨٧٣هـ / ١٤٦٩م مئذنة ثانية للمسجد، بجوار الباب البحرى أى الباب الشمالى، الذى أمر كذلك بتجديده[٩]. ويبدو أن اهتمام السلطان قايتباى بالأزهر كان متصلا، فقد ذكر

---

(١) انظر المقريزى، «الخطط»، جزء ثان، صفحة ٢٧٦.

(٢) شرحه.

(٣) شرحه، صفحة ٢٨٣.

(٤) انظر شرح صفحة ٢٨٤. وقد هدمت هذه المدرسة وأعيد بناؤها فى نهاية القرن التاسع عشر.

(٥) شرحه، صفحة ٢٧٦.

(٦) شرحه.

(٧) شرحه.

(٨) انظر (على) مبارك، «الخطط التوفيقية»، جزء ثان، صفحة ٩١، وجزء رابع وصفحتا ١٩ و ٢٠

(٩) صفحة ٤٤ من الجزء الأول من كتاب (برشم)، «موسوعة النقوش العربية».

المؤرخون أنه أمر بإجراء أعمال تجديد وإصلاح فيه فى سنتى ٨٨١هـ و ٩٠٠هـ / ١٤٧٧م و ١٤٩٤م[١]. وأنشأ السلطان قانصوه الغورى مئذنته المشهورة باسمه والتى يتوجها طابق من قبة مزدوجة، ولم تحدد سنة بناء هذه المئذنة. ولكن حكم السلطان الغورى امتد من سنة ٩٠٦هـ إلى سنة ٩٢٢هـ / ١٥٠١م — ١٥١٧م[٢].

وقد عُمِّر المسجد وجدد بعد ذلك مرات، مرة فى سنة ١٠٠٤هـ / ١٥٩٥م، ومرة فى سنة ١٠١٤هـ / ١٦٠٥م ومرة ثالثة قبيل سنة ١١٣٦هـ / ١٧٢٤م[٣].

ولعل أهم عمارة أجريت بالمسجد الجامع الأزهر منذ إنشائه هى تلك التى أجراها الأمير عبد الرحمن كتخدا فى سنة ١١٦٧هـ / ١٧٥٣م، والتى أضافت أقساما هامة إلى بنيانه وتخطيطه. إذ إن هذا الأمير أمر بهدم جدار القبلة، فيما عدا المحراب، وجزء من الجدار على يسرته، وأضاف إلى بيت الصلاة من تلك الجهة المهدومة، بيتاً آخر متصلاً بالبيت الأول ويشمل أربعة أساكيب تنقسم إلى أربع عشرة بلاطة، شكل (٣). وبنى جدارا آخر للقبلة يتوسطه محراب تعلوه قبة، وتبلغ مساحة بيت الصلاة الجديد نصف مساحة البيت القديم، وهو «يشتمل على خمسين عمودًا من الرخام تحمل مثلها من البوائك المقصورة المرتفعة المتسعة من الحجر المنحوت»[٤]. وكذلك أنشأ الأمير كتخدا لبيت الصلاة الجديد من ناحيته الغربية «بابًا عظيمًا من جهة حارة كتامة، وبنى بأعلاه مكتبا بقناطر معقودة على أعمدة من الرخام لتعليم الأيتام من أطفال المسلمين القرآن، وجعل بداخله رحبة متسعة وصهريجاً عظيمًا وسقاية لشرب العطاشى المارين، وعمل لنفسه مدفنًا بتلك الرحبة، وجعل عليه قبة معقودة وتركيبة من رخام بديعة الصنعة، وجعل بها أيضًا رواقًا مخصوصًا بمجاورى الصعايدة المنقطعين لطلب العلم.. وبه مرافق ومنافع ومطابخ ومخادع وخزائن كتب، وبنى بجانب ذلك الباب منارة، وأنشأ بابًا آخر جهة مطبخ الجامع، وجعل عليه منارة أيضًا»[٥].

---

(١) انظر صفحتا ١٦٩ و ٢٨٥ من الجزء الثانى من كتاب «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» لمؤلفه ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفى المتوفى سنة ٩٣٠هـ / ١٥٢٢م، ثلاثة أجزاء، مطبعة بولاق، القاهرة سنة ١٣١١هـ / ١٨٨٩م.

(٢) انظر شرحه، جزء ثالث، صفحة ٦٢؛ و (على) مبارك، «الخطط التوفيقية»، جزء رابع، صفحة ١٢.

(٣) انظر (على) مبارك، «الخطط التوفيقية»، جزء رابع، صفحة ١٢، عن ابن إياس، «بدائع الزهور».

(٤) انظر المرجع السابق صفحة ١٣، نقلاً عن صفحة ٥ من الجزء الثانى من كتاب «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» لمؤلفه الشيخ عبد الرحمن بن حسين الجبرتى المتوفى سنة ١٢٣٧هـ / ١٨٢١م، والمعروف بـ (الجبرتى)، أربعة أجزاء، مطبعة بولاق بالقاهرة سنة ١٢٩٧هـ / ١٨٧٥م.

(٥) انظر المرجع السابق، صفحة ١٣.

ولم تقتصر أعمال كتخدا على هذه الإضافات العديدة التى جعلت من الأزهر مسجدين، بل إنه أنشأ بابًا كبيرًا جديدًا، فى الجهة الشمالية من المسجد، مقابلاً للباب العتيق، «وهذا الباب الكبير عبارة عن بابين عظيمين، كل باب بمصراعين وجعل على يمينهما منارة، وجعل فوقه مكتبا أيضًا»[1]، وهذا هو الباب الرئيسى للمسجد، المسمى باب المزينين. والظاهر أن كتخدا جدد بناء المدرستين الطيبرسية والأقبغاوية، كما جدد أروقة الصحن، إذ إن الجبرتى يضيف إلى ما ذكره عن الباب الكبير، أن هذا الباب جاء «وما بداخله من الطيبرسية والأقبغاوية والأروقة، من أحسن المبانى فى العظم والوجاهة والفخامة»[2].

وهكذا أضاف الأمير كتخدا فيما أضاف إلى المسجد الجامع الأزهر ثلاث مآذن، فأصبح به ست مآذن. وكانت به من قبل ثلاث، واحدة أقامها الأمير علاء الدين أقبغا، فى عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، والثانية أقيمت فى عهد السلطان الأشرف قايتباى، والثالثة ترجع إلى عهد السلطان قانصوه الغورى. وقد هدمت مصلحة الآثار إحدى المآذن التى أقامها كتخدا، وهى المئذنة التى كانت عن يمين البابين الكبيرين، باب المزينين، وذلك إرضاء لرغبة الخديوى عباس فى بناء الرواق العباسى[3]. وقد تبقى اليوم من هذه المآذن كلها أربع، مئذنتا قايتباى والغورى ومئذنتا كتخدا على بابى الشربة والصعايدة.

وأقيم رواق الشرقاوية، شمالى المدرسة الجوهرية، وملاصقًا لها، وتم بناؤه فى عهد الأمير إبراهيم بك، فيما بين سنتى ١١٩٢هـ و ١٢١٣هـ / ١٧٧٨م — ١٧٩٨م، وكان ذلك تحقيقًا لرغبة الشيخ الشرقاوى[4].

وبعد ذلك بسنوات قليلة، فى سنة ١٢٢٠هـ / ١٨٠٥م، أضيف إلى الأزهر رواق السنارية، شمالى رواق الشرقاوية. ثم أصاب الجامع الأزهر زلزال خفيف فى سنة ١٢٢٩هـ / ١٨١٤م، سقطت على إثره شرفة منه[5].

---

(١) شرحه

(٢) شرحه.

(٣) انظر صفحات ٤٧ و ٤٨ و ١٣٠ و ١٣١ من سنة ١٨٩٤م من «محاضر لجنة حفظ الآثار العربية» التى ظهر منها ٤١ جزءًا من سنة ١٨٨٢م إلى سنة ١٩٦٣م. بعضها باللغة العربية ومعظمها باللغة الفرنسية. كما ظهر منها فهرس عام باللغة الفرنسية للأعداد الـ ٢٧ الأولى من سنة ١٨٨٢م إلى سنة ١٩١٠م.

(٤) انظر الجبرتى، «عجائب الآثار»، جزء رابع، صفحة ١٦١.

(٥) انظر شرحه — صفحة ٢١١.

ورغب ولاة مصر من أسرة محمد على أن يجددوا مبانى الأزهر، ولكنهم لم يحترموا أثناء أعمال التجديد معالمه القديمة، فطمسوا معظمها[1]. وجددت أجزاء هامة من بيت الصلاة العتيق فى سنة ١٣٠٦هـ / ١٨٨٨م، فى عهد توفيق، وخاصة النصف الشرقى منه، كما جدد جميع بيت الصلاة الذى أنشأه الأمير كتخدا، وجددت كذلك المدرسة الأقبغاوية ورواق السنارية، وأضيفت عمد إلى أروقة المجنبتين الشرقية والغربية، فأصبحت العمد بها مزدوجة، بعد أن كانت منفردة عند إنشاء المسجد الجامع الأزهر على يدى جوهر الصقلى.

أما الأعمال التى أجرتها مصلحة الآثار، (لجنة حفظ الآثار العربية سابقًا)، منذ سنة ١٨٩١م، لإصلاح المسجد وتدعيم عقود الصحن المختلة، وإرضاءً لرغبة الخديوى عباس فى بناء رواق يسمى باسمه، فقد بدأت بتجديد العقود المحيطة بالصحن جميعًا، وهى التى كان الخليفة الحافظ لدين الله قد أنشأها، ومن حسن الحظ أن هذه الأعمال أبقت على القبة التى تتوسط الرواق الجنوبى من الصحن المتصل ببيت الصلاة ولم تغير معالم زخارفها. وشملت هذه الأعمال هدم المبانى التى كانت قائمة فى واجهة المسجد الغربية، وفى النصف الغربى من واجهته الشمالية وإقامة واجهتين جديدتين بدلا منهما، تضمان مبانى جديدة، منها الرواق العباسى الذى يقع فى الركن الغربى الشمالى من المسجد.

وهكذا توالت أعمال التجديد، والإصلاح والترميم والإضافة إلى المسجد الجامع الأزهر منذ إتمام بنائه فى العصر الفاطمى، حتى كادت تتوارى مظاهر عمارته الأولى. وسنرى فيمايلى أننا نستطيع، بالرغم من كل تلك الإضافات، تحديد تخطيط المسجد الأول، وإظهار عناصره الفاطمية، معمارية وزخرفية، ورسم صورة واضحة لمعالمه فى العصر الفاطمى.

٢

تخطيط المسجد الفاطمى

كان مسجد الأزهر عند إتمام إنشائه فى سنة ٣٦١هـ / ٩٧٢م يحتل مساحة مستطيلة، مقاساتها الخارجية ٨٨ مترًا طولا و ٧٠ مترًا عرضًا. وكان بيت الصلاة فيه يمتد ٨٥ مترًا فى موازاة جدار القبلة، و ٢٥ مترًا من هذا الجدار إلى الصحن[2]، شكل (٤). وكان هذا البيت يشمل خمسة أساكيب عرض

(١) وصف بعض الكتاب هذه الأعمال بأنها «مآثر»، وذلك تملقًا للحكام حينذاك.

(٢) هذه المقاسات بالأمتار التقريبية.

كل منها أربعة أمتار وربع، وكان يعلو أسكوب المحراب ثلاث قباب، واحدة أمام المحراب، وواحدة على كل طرف من طرفى الأسكوب[1]. وتنقسم الأساكيب إلى تسع عشرة بلاطة. وكان بيت الصلاة يطل على الصحن بيائكة من ثلاثة عشر عقدًا. وعرض البلاطات فيما بين الأعمدة أربعة أمتار تقريبًا، فيما عدًا بلاطة المحراب، فهى أكثر سعة، ويبلغ عرضها سبعة أمتار. وتقوم على أعمدة بيت الصلاة، على جوانب الأساكيب، صفوف من العقود، موازية لجدار القبلة كما يقوم على أعمدة البلاطة الوسطى صفان من العقود، يحفان بها، عموديين على جدار القبلة، يبدأ كل منهما من جدار القبلة على جانب من جانبى المحراب، وينتهيان بنهاية البلاطة، عند حدود الأسكوب الخامس. ولا تخترق صفوف العقود الفاصلة بين الأساكيب بلاطة المحراب، وإنما تنتهى عند جانبيها، فيما عدًا الصفين الفاصلين للأسكوبين الأول والخامس، فهما يمتدان من الجدار الغربى لبيت الصلاة إلى جداره الشرقى.

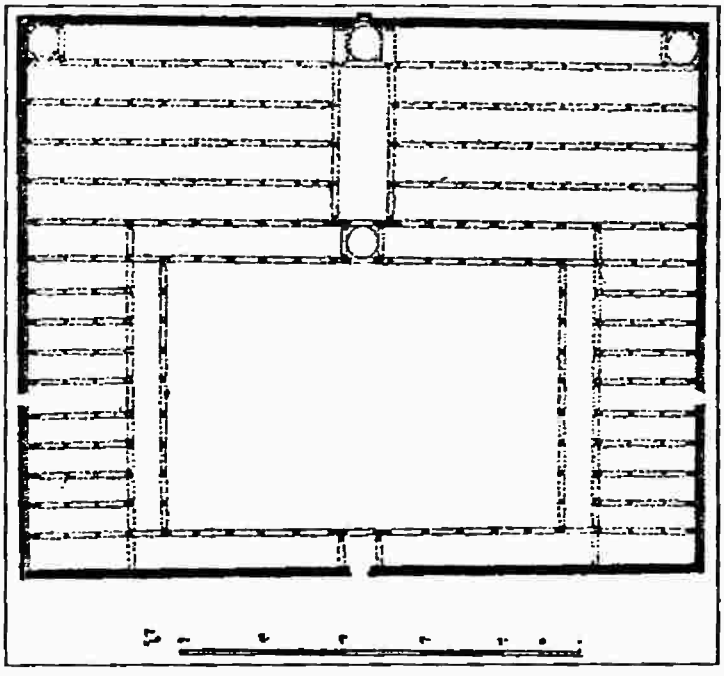

شكل (٤) – رسم تخطيطى لمسجد الأزهر الجامع فى العصر الفاطمى (من رسم المؤلف)

(١) انظر أشار المقريزى إلى هذه القباب فى صفحة ٢٧٤ من الجزء الثانى من «الخطط»، وجاء فى وقفية الخليفة الحاكم بأمر الله على «جامع الأزهر وجامع المقس والجامع الحاكمى ودار العلم بالقاهرة»، وهى المنشورة فى الصفحة المشار إليها من «خطط» المقريزى، وفى صفحة ١٠ من الجزء الرابع من «الخطط التوفيقية» (لعلى) مبارك، أن الخليفة الحاكم أوقف أربعة وعشرين دينارًا لمؤنة النحاس والسلاسل والقناديل والقباب التى فوق سطح «الجامع الأزهر».

وكان صحن المسجد مستطيلاً، طوله الملاصق لبيت الصلاة تسعة وخمسون متراً، وعرضه ثلاثة وأربعون. وكانت تحف به مجنبتان، واحدة فى شرقيه، والأخرى فى غربيه، وكان بكل منهما ثلاثة أروقة، تطل على الصحن بائكة من كل منها تتكون من أحد عشر عقداً. وكان بكل مجنبة عشرة صفوف من العقود، موازية لصفوف بيت الصلاة، بكل منها ثلاثة عقود تخترق الأروقة. ولم يكن للمسجد أول الأمر مؤخر.

ثم أضاف الحافظ لدين الله إلى الصحن، كما ذكرنا من قبل، رواقاً يدور حوله من جهاته الأربع. وجعل فى منتصف الرواق الملاصق لبيت الصلاة مدخلاً لهذا البيت تعلوه قبة، ويحف به محراب عن يمينه وآخر عن يساره، يقع تجويفهما فى الجدار الخارجى لهذا المدخل[1]. وجعل الحافظ هذا الرواق يطل على الصحن بعقود قائمة على أعمدة منفردة، وكانت البوائك المطلة على الصحن، فى عهد جوهر، قائمة على أعمدة مزدوجة. وأغلب الظن أنه كان للمسجد ثلاثة أبواب، واحد فى منتصف الجدار الشمالى، مقابلاً للمحراب، وواحد فى كل من جداريه الشرقى والغربى.

ولم يكن للمسجد العتيق زيادة، أو على الأصح، لم يشر أحد من المؤرخين القدامى إلى مثل هذه الزيادة، ولم يستدل على أثر لها بالمسجد، بخلاف ما تخيله أحد الكتاب[2].

ويمتاز تخطيط المسجد الفاطمى بوضوح أساكيبه وخاصة بسعة بلاطة المحراب فيه وإقامة ثلاث قباب على أسكوب المحراب، وقبة رابعة على نهاية بلاطته، هى قبة البهو. كما يمتاز هذا التخطيط بامتداد عقود الأروقة جميعًا موازية لعقود الأساكيب، وهى عناصر يظهر بعضها لأول مرة فى تخطيط المساجد بمصر. وسنوضحها ونشير إلى غيرها من العناصر التى يمتاز بها تخطيط المسجد الفاطمى، فى الفصل الخامس من هذا الكتاب، ونحاول أن نبحث عن مصادرها وأحكامها.

---

(١) يعتقد المؤلف أن تجويف هذين المحرابين قد تم فى عهد الحافظ نظرًا لفتحات عقديهما المنفرجين. وكان البعض يظن أن بوائك الصحن وقبته أصيلة فى المسجد من عهد جوهر. وظن البعض الآخر مثل (هوتكور) أنها من عهد العزيز بالله بن المعز. ولكن المؤلف مقتنع برأى الذى أبداه (فلورى) فى سنة ١٩١٢م والذى أوضح فيه أن زخارف قبة البهو فى المسجد الأزهر ونقوشها الخطية الكوفية تنتمى إلى بداية القرن السادس الهجرى، أى إلى العهد الذى أجرى فيه الخليفة الحافظ لدين الله إصلاحات وتجديدات بالمسجد. انظر صفحة ٢١٨ من الجزء الأول من كتاب «مساجد القاهرة» لمؤلفيه (فييت) و (هوتكور): وانظر صفحة ٤١ من كتاب «زخارف مسجدى الحاكم والأزهر» لمؤلفه (فلورى):

Flury (Samuel): *Die Ornamente des Hakim und Azhar Moschee*. Heidelberg. 1912.

(٢) انظر صفحة ٦٠ من الجزء الأول من كتاب (كريسويل)، «العمارة الإسلامية فى مصر».

٣

عناصر المسجد الفاطمى المعمارية

يحتفظ الأزهر بأجزاء هامة من عناصره المعمارية الأصيلة، بالرغم من أعمال التجديد والإضافات والتعمير وإعادة البناء التى أجريت فيه منذ إنشائه، والتى أضفت عليه طابعًا مجددًا.

وقد بنيت جدران المسجد الفاطمى الأول من الآجر، وكذلك بنيت عقوده وقبابه ودعاماته. والمعروف أن عمده جميعًا وتيجانها، على عادة البناء فى المساجد الأولى، جلبت من آثار قديمة سابقة، وأنه ليس لبنائيه الأوائل فضل فى صياغتها، واقتصر فضلهم على تنسيق هذه الأعمدة القصيرة فوق الأسس، وإعدادها لحمل العقود، ورفعها إلى أقصى علو استطاعت أن تحتمله.

وقد تبقت من المسجد الفاطمى بضعة عقود ودعامات أمكن الاستدلال منها على أشكالها ونظم تكوينها. وإذا كانت قباب أسكوب المحراب الثلاث قد اندثرت، وأقيمت قبة جديدة عوضاً عن قبة المحراب العتيقة، فإنه قد تبقت قبة البهو، التى أقيمت فى عهد الحافظ لدين الله، وهى عنصر هام من عناصر عمارة المسجد.

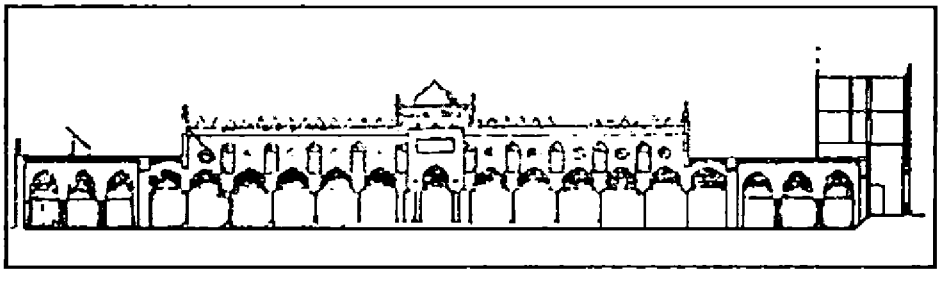

(شكل ٥) – قطاع رأسى لمسجد الأزهر عند حدود واجهة المقدم على الصحن. (عن مصلحة الآثار)

والعقد هو أول هذه العناصر شيوعًا وأهمية. وعقود المسجد فى بيت الصلاة وفى أروقة المجنبات صفت فى اتجاه موازٍ لجدار القبلة، لوحة رقم (١٠)، فيما عدًا أربعة صفوف، منها صفان يحفان ببلاطة المحراب، والصفان الآخران كانا يطلان على الصحن من مجنبتيه الشرقية والغربية. وكانت هذه العقود جميعًا، فيما عدًا الصفوف التى كانت تحف بجانبى الصحن، ترتكز على أعمدة منفردة. وكانت صفوفها فى بيت الصلاة تبدأ، كما تنتهى، مرتكزة على عمود منفرد، ملتصق من جهة بجدار المسجد، فى شرقيه أو غربيه، ومن جهة أخرى على عمود مجاور لأحد الأعمدة التى ترتكز عليها عقود بلاطة المحراب، شكل (٥)، ولوحة رقم (١١). وكذلك كانت صفوف عقود المجنبات، ترتكز من ناحية على عمود ملتصق بالجدار، ومن ناحية أخرى على عمودين مزدوجين من أعمدة بائكتى الصحن.

هذا من حيث اتجاه العقود. أما من حيث نظام بنائها، فأول ما كان يسترعى النظر فيها أن أطرافها لم تكن ترتكز مباشرة على تيجان الأعمدة، بل كانت ترتكز على مجموعة تعلو هذه التيجان. وكانت تتكون هذه المجموعة، لوحة رقم (١٢)، من جدارة تعلوها طنفة وتدنوها قرمة[1]. والحدارة مكعب من البناء، ارتفاعها نصف متر تقريبًا، أى إن منبت العقود يرتفع عن أرضية المسجد بما يقرب من أربعة أمتار، وتصل رؤوسها إلى ما يزيد عن ستة أمتار، وهو ضعف ارتفاع الأعمدة تقريبًا. ويبلغ ارتفاع الجدار فوق رؤوس العقود ثلاثة أرباع المتر، وتمتد سقف المسجد على ارتفاع سبعة أمتار تقريبًا من أرضية المسجد. وقد رفعت سقف بلاطة المحراب، فى تاريخ لاحق، فوق هذا المستوى، مترا ونصف المتر تقريبًا.

وقد توصل البناء إلى رفع سقف المسجد إلى علو يزيد عن ضعف ارتفاع الأعمدة مع تيجانها وقواعدها، وذلك بإضافة هذه الحدارات من جهة، ومن جهة أخرى باتخاذ العقود المدببة، ذات المركزين، وهى عقود يظهر الدبب فيها أكثر وضوحًا منه فى عقود المسجد الطولونى. وتصل أوتار خشبية بين أطراف العقود وتربطها عند مستوى الحدارات.

أما العقود التى تحف ببلاطة المحراب، فقد اتسعت فتحاتها، لأن عرض الأساكيب التى تمتطيها هذه العقود أكثر اتساعًا من عرض البلاطات التى تمتطيها بقية عقود بيت الصلاة. ولهذا بدت عقود بلاطة المحراب هذه عريضة الأكتاف وبدت فتحاتها شبه منفرجة. لوحة

---

(١) يسمى بعض الكتاب القرمة «طبلية»، وخاصة إذا كانت مصنوعة من الخشب. وقد اختفت معالم هذه الحدارات تحت البياض الجصى الذى صاحب تجديد المسجد. وتبقى البعض منها فى الجزء الغربى من بيت الصلاة، إلى يمين المتجه إلى المحراب.

رقم (١١). وقد كسيت مسطحات عقود بلاطة المحراب بزخارف جصية، وامتدت حول فتحات العقود إطارات منقوشة بالخط الكوفى. وكذلك كانت الأجزاء العليا الداخلية من الجدران المحيطة ببيت الصلاة من جهاته الأربع مكسوة بلوحات ونقوش زخرفية. وفتحت فى أعلى جدار القبلة نوافذ مكسوة بستائر جصية مشبكة، يحيط بها إزار نقشت عليه بالخط الكوفى آيات قرآنية، لوحة رقم (١٣ ب).

ويلاحظ أن عقود هذه النوافذ، لوحة رقم (١٣)، قد شكلت من أنصاف دوائر، على خلاف العقود البنائية فى بقية أجزاء المسجد، وهى كما رأينا عقودًا مدببة.

أما واجهة بيت الصلاة على الصحن فقد رأينا أنها جددت جميعًا فى مستهل القرن العشرين. ولكنه يستدل من الرسوم المحفوظة بمصلحة الآثار أن الواجهة القديمة لم تكن تختلف نظامًا عن الواجهة المجددة، لوحة رقم (١٥)، وكذلك كانت الواجهة المقابلة لها المطلة على الصحن من مؤخر المسجد، لوحة رقم (١٦). وقد أقيمت عقود واجهات الصحن، على كل حال، على غير نظام عقود بيت الصلاة وأروقة المجنبات، فهى لا ترتقى على حدارات، ولكنها كانت ترتقى على طبال، أو قرم خشبية، أقيمت فوق تيجان الأعمدة. ثم إن دبيها وحدبها ازدادا وضوحًا، وانبطحت أكتافها، واتخذت أطرافها شكل الخطوط المستقيمة. فلم تعد أطرافًا مقوسة، وهذه هى العقود المنفرجة التى سميت خطأ، كما سنرى، بالعقود الفارسية، شكل (٥). ولكن فتحات هذه العقود لا تختلف كثيرًا عن فتحات عقود بيت الصلاة من حيث محيطها وارتفاعها. وقد زينت الجدران التى تعلو بوائك الصحن فيما بين أكتاف العقود، بطاقات صماء على هيئة المحاريب، محاطة كل منها بإزار من الخط الكوفى، ونسقت فوق قمم العقود، وبين هذه المحاريب، سرر وردية ضخمة. وأخيرًا امتطت شرفات هرمية واجهتى الصحن، جنوبية وشمالية، من ناحيتى بيت الصلاة والمؤخر.

وبالأزهر محراب من عهد المعز، كان يتوسط جدار القبلة قبل هدمها فى عهد كتخدا سنة ١١٥٣م ؛ لوحة رقم (١٤). وهو محراب مجوف يتكون من طاقة تتوجها نصف قبة محلاة بالزخارف الجصية. يتصدرها عقد مدبب دبيًا خفيفًا تطول أطرافه ويكسو واجهته إزار من كتابة كوفية من آى الذكر الحكيم[1]. ويتقدم هذا العقد ويحيط به عقد ثان أكبر

---

(١) العقدان المتتابعان فى هذا المحراب مطولان كذلك وكلاهما شبه منفوخ. وقد كانت تكسو رأس هذا المحراب وعقديه كسوة خشبية (تركيبة) رفعت حديثًا عنه ونقلت إلى محراب آخر يقع فى غربى جدار القبلة عن بيت الصلاة الذى أضافه كتخدا إلى البيت العتيق. وهكذا ظهرت زخارف محراب المعز بعد أن ظلت مختفية ردحا طويلا من الزمان تحت تلك (التركيبة) الخشبية. وسنتحدث فيما بعد عن زخرفة هذا المحراب.

وأوسع منه، يرتكز طرفاه على عمودين يتصدران المحراب، لكل منهما تاج ناقوسى، ويكسو واجهة هذا العقد كذلك إزار من آيات قرآنية نقشت بالخط الكوفى. أما الزخارف الرخامية التى تكسو طاقة المحراب وجانبيه فقد أضيفت إليه فى عصر المماليك.

واحتفظ المسجد الفاطمى بقبة الحافظ التى أقيمت فى منتصف الرواق المطل على الصحن من بيت الصلاة. وقاعدة هذه القبة مربعة، طول كل ضلع منها ثلاثة أمتار ونصف، وهى ترتقى على أربعة عقود، ثلاثة منها ترتكز على أعمدة، ويمتطى العقد الرابع الدعامتين اللتين تحفان بمدخل بلاطة المحراب. وإلى جانبى هذا المدخل جوفت الدعامتان على هيئة محرابين أحدهما إلى اليمين والآخر إلى اليسار، على هيئة المحراب العتيق، ولكنهما خاليان من الزخرف. والعقود الأربعة التى ترتكز عليها القبة عقود منفرجة، لوحة رقم (١٨)، تتكون أطرافها وأكتافها من خطوط مستقيمة، واقتصر التقويس فى العقد على المنطقة التى يلتقى الطرف فيها بالكتف فى كل من جانبى العقد. وأصبح كتفا العقد خطين مستقيمين يلتقيان فى نقطة هى قمة العقد، ويكونان منها زاوية منفرجة. وتربط منبت هذه العقود أوتار خشبية، كما هى الحال فى جميع عقود المسجد. ويعلو العقود جزء من جدار يبلغ ارتفاعه مترًا، يتكون منه طابق مربع لقاعدة القبة.

وتمتطى أركان هذا الجدار مقرنصات معقودة أربعة، لوحة رقم (١٧)، واحدة فى كل ركن، ويبلغ ارتفاع الواحدة منها مترين. وقد طالت أطراف المقرنصات وانبطحت عقودها. وفتحت فى وسط كل ضلع من أضلاع الجدار المربع، بين المقرنصات، نافذة مكسوة بستارة جصية مخرمة. وأخيرًا ترتقى القبة عقود المقرنصات والنوافذ. وهى قبة كروية صغيرة، لوحة رقم (١٨)، مدببة دببًا خفيفًا، ومبنية من الآجر، مثل بقية عناصر البناء فى المسجد. ويبلغ ارتفاع قمة هذه القبة ثلاثة عشر مترًا عن سطح الأرض، وستة أمتار عن قاعدة المقرنصات.

هذه هى العناصر المعمارية الهامة فى المسجد الأزهر، وسنعود إلى التحدث عنها من حيث خصائصها ومميزاتها وأوجه الاشتقاق والابتكار فيها، ومن حيث أهميتها فى تطور العمارة الإسلامية فى القاهرة.

٤

العناصر الزخرفية العتيقة

تخلفت أجزاء كثيرة من زخرفة مسجد الأزهر العتيقة. وتدل مظاهر هذه الأجزاء على أن جوهر الصقلى كان قد حرص على أن يكسو جدران بيت الصلاة وعقوده بطبقات ممتدة من الزخارف، محفورة على الجص، بحيث كان هذا البيت يبدو حينذاك كأنه مرتد عباءة ناصعة

البياض، محلاة أطرافها وحوافها بديباج زاهى الألوان، إذ كانت الزخارف تتهادى فوق بساط متنوعة نقوشه وألوانه.

ونلقى الزخارف العتيقة فى خمسة مواضع من مسجد الأزهر: أولاً، فى الأجزاء الغربية من جدار القبلة القديم. وفى الجدار الشرقى وجزء من الجدار الغربى داخل بيت الصلاة. ثانيًا. فى الأجزاء القابلة لجدار القبلة. داخل هذا البيت، من عقود الأسكوب الخامس الذى كان يطل على الصحن قبل زيادة الحافظ لدين الله. ثالثاً فى المحراب العتيق. رابعًا فى عقود بلاطة المحراب. وأخيرًا فى قبة البهو. أما زخارف واجهات الصحن، فقد أزيلت فى نهاية القرن التاسع عشر وجددت تجديدًا أفقدها صفتها العتيقة، فهى ليست فى رأيى فاطمية[1].

وكان القسم العلوى جميعه فى جدار القبلة وفى الجدارين الشرقى والغربى من بيت الصلاة محلى بزخارف جصية، منها لوحات معقودة تحف بالنوافذ التى كانت مفتوحة فى هذه الجدار، وتشبهها حجمًا وشكلاً. وكانت النوافذ محشوة بستائر جصية مخرمة، قوام بعضها حلقات هندسية متشابكة، وقوام البعض الآخر أوراق نباتية متجانسة شبيهة بأنصاف المراوح النخيلية. أما تلك اللوحات فكانت صماء، وهى تستمد زخرفتها من سيقان ملتفة متقابلة حول مركز رأسى، وهى حين ترتقى فى التوائها، تخرج منها وريقات مدببة تملأ الدوائر التى تكونت من هذا الالتواء. وكان يدور حول هذه اللوحات وتلك النوافذ إطار متصل ممتد يربط بينهما جميعًا، نقشت عليه كتابة كوفية من آيات القرآن الكريم، مزهرة تزهيرًا مبسطًا. كما ملئت التواشيح والفراغات المستطيلة الكائنة بين اللوحات والنوافذ بزخارف نباتية أخرى. وكان يجرى فوق هذه اللوحات والنوافذ، وتحتها، إزاران مستقيمان محشوان بعناصر زخرفية منوعة، فيها أشكال فاكهة الكمثرى وأشكال وريقات نباتية أو نخيلية ثلاثية الأطراف. كما كان يمتد تحت هذه المجموعات الزخرفية شريط أفقى نقشت عليه الآيات القرآنية بالخط الكوفى المزهر، شبيها بالإطار الممتد حول اللوحات والنوافذ. ولم يتبق من هذا القسم العلوى من جدار القبلة العتيق غير أجزاء قليلة فى غربيه وفى أعلى الجدار الشرقى وجزء فى الجدار الغربى فى بداية الأسكوب الرابع لوحة رقم (١٣ ب).

---

(١) أجرى الأستاذ (فلورى) دراسات مستفيضة عن زخارف مسجد الأزهر، وهى أكثر الدراسات الموضوعية أهمية من بين البحوث التى ظهرت حتى اليوم عن هذه الزخارف. انظر كتاب (فلورى)، «زخارف مسجدى الحاكم والأزهر» المشار إليه فى حاشية سابقة، وانظر كذلك بحثه عن «الزخارف الكتابية فى آثار القاهرة الفاطمية».

Flury (Samuel): *Le Décor Epigraphique des monuments Fatimides du Caire.* Syrie. XVII. 1936. pp. 36-76.

وكان القسم العلوى الممتد داخل بيت الصلاة فوق العقود المتطرفة للأسكوب الخامس الذى كان يطل على الصحن قبل زيادة الحافظ محلى بزخارف جصية منسقة فى لوحات صماء تحيط بها إطارات وكذلك كانت العقود وتواشيحها فى الصف الشمالى لهذا الأسكوب. وقد تبقت من زخارف هذه العقود والتواشيح أجزاء فى العقود الثلاثة المتطرفة فى كل من بداية هذا الأسكوب الخامس ونهايته، شمالا وجنوبًا، لوحة رقم (١٩) كما تبقت زخارف العقد الذى يقع فى نهاية بلاطة المحراب، لوحة رقم (١٣ أ). أما بقية زخارف عقود هذا الأسكوب فهى مجددة. وقد صيغت الزخارف، فى العقود العتيقة، من السيقان النباتية الملتفة، وروعى أن يكون التماثل فيها فى وضع رأسى، وأن تكون الورقات فيها مدببة ذات شحمتين أو ثلاث أو خمس شحمات، وأن تتدلى من بعضها أشكال فواكه مجسمة.

وقد ذكرنا أن المحراب العتيق من المسجد لوحة رقم (١٤)، كان مكسوًّا جميعه بالزخارف، تاجه، أو رأسه، والعقد المحيط به، والعقد الخارجى، وباطن هذا العقد. أما رأس المحراب فإن تجويفه محشو بالزخارف النباتية المستمدة من نظيرتها فى بقية أجزاء المسجد، وهى الوريقات النباتية المدببة الشبيهة بأنصاف المراوح النخيلية، المتعددة الشحمات، المنبثقة من سيقان متعرجة متقابلة. غير أن المجموعة الإنشائية التى يتكون منها رأس المحراب تتوسطها ورقة نباتية كبرى، على هيئة مروحة نخيلية، أو زهرة الزنبق، تعلوها ورقة كبرى أخرى مقلوبة. على هيئة قنديل أو مشكاة. ويكسو العقد المحيط بهذه المجموعة الإنشائية إطار من الخط الكوفى المزهر المبسط، كتب عليه: بسم الله الرحمن الرحيم» ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾[1].

وأما العقد الخارجى للمحراب، فتمتد عليه حلية بديعة من الخط الكوفى المزهر كتب عليها: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ ﴾[2]

ويلاحظ فى تزهير هذا الخط أن الفرع الممتد من حرف العين فى كلمة «خاشعون» ينبثق فى شكل ورقة نباتية رشيقه، شكل (٦). وغطت باطن العقد نفسه زخارف جصية كذلك، عناصرها نباتية، وتمتاز بسيقانها المزدوجة التى تتعرج فى شكل إطار من ورقتين قائمتين متقابلتين، تتكون كل منهما من ثلاث شحمات، لوحة رقم (١٤) وتملأهما وتحيط بهما وريقات نباتية وعسف نخيلية.

---

(١) قرآن كريم – سورة ٦ (الأنعام)، الآية ١٦٢ .

(٢) قرآن كريم – سورة ٢٣ (المؤمنون)، الآيات ١ و ٢ و ٣.

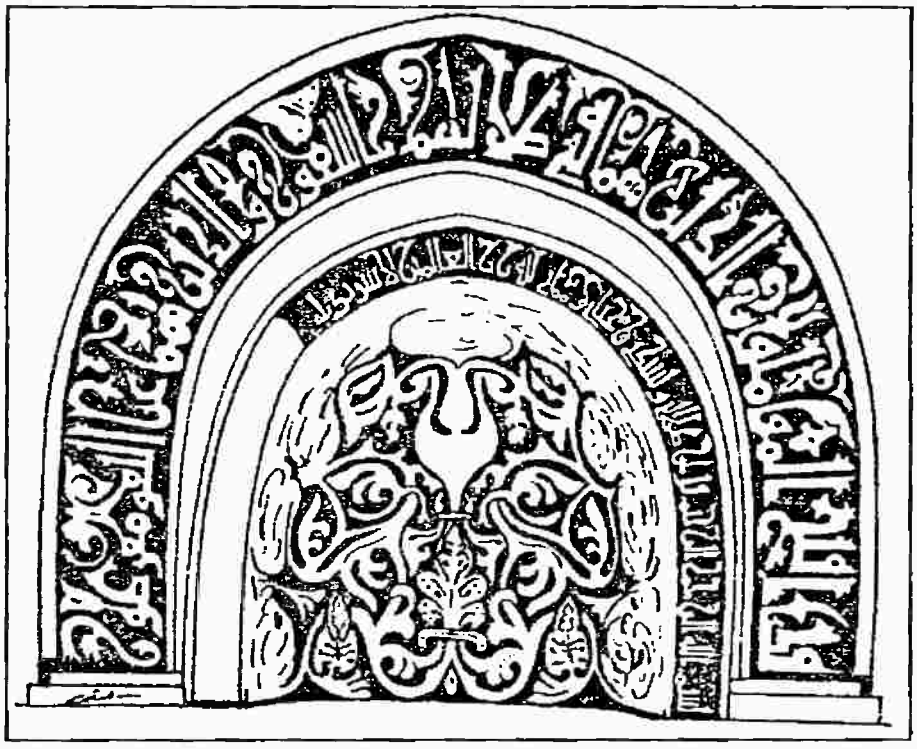

شكل(٦) – زخرفة رأس المحراب العتيق فى مسجد الأزهر (من رسم المؤلف)

وكانت العقود الممتدة على جانبى بلاطة المحراب، لوحة رقم (٢٠) مكسوة بالزخارف هى وتواشيحها حتى عوارض السقف. وقد اندثر بعض هذه الزخارف، وجدد البعض الآخر، وتبقى معظمها على حاله القديمة. وكان يكسو العقد نفسه إطارنقشت عليه آيات قرآنية بالخط الكوفى المزهر تزهيرًا خفيفًا. أما أكتاف العقد وتواشيحه فقد امتلأت بذلك النوع من الزخارف النباتية التى صيغت على هيئة السيقان المتعرجة والتى تنبثق منها وريقات منحنية، منفردة أحيانا، ومزدوجة أحيانا أخرى، متعددة الشحمات، محصورة فى الحلقات والدوائر التى رسمتها تعرجات السيقان على هيئة أنصاف المراوح النخيلية. وهذا هو النوع السائد فى مسجد الأزهر والذى تمتاز به زخارفه العتيقة.

وتحتفظ قبة البهو بالزخارف البديعة التى نقشت عليها من الداخل عند إنشائها فى عهد الحافظ لدين الله، وهى زخارف وصفها أحد الكتاب بأنها «فريدة» فى نوعها[1]، اللوحتان رقما (١٧ و ١٨). وتطغى الزخارف الكتابية على مسطحات هذه القبة الداخلية. ويبدو التزهير فى الخط الكوفى أكثر وضوحًا مما كان عليه فى زخرفة عقود بلاطة المحراب، ويمتاز بأن الأرضية التى أمتدت عليها هذه الخطوط الكوفية انتشرت عليها زخارف نباتية مستقلة. وإن كانت فى نواح كثيرة تتصل بزخارف أطراف الحروف اتصالاً يجمع بين النوعين من الزخرف ويبدو نقشه أو أسلوبه طبيعيًا. وتلقى الكتابة الكوفية ممتدة على شرائط تحيط بالعقود الرافعة للقبة، وبالمربع القائم تحت قاعدتها فوق هذه العقود، وبالعقود المحيطة بالمقرنصات فى أركان القبة، وتلك المحيطة بالنوافذ فى منتصف أضلاعها الأربعة، بين المقرنصات. وفوق هذا كله، يجرى إزار آخر مستدير، أو على الأصح مثمن الأضلاع، يحيط بباطن القبة، فوق رؤوس عقود المقرنصات والنوافذ.

أما تواشيح العقود فقد امتلأت بزخارف نباتية من سيقان وأوراق متطورة، تنبثق منها أشكال الفواكه والأزهار. وكانت تتدلى على نواقذ القبة ستائر مخرمة، تبقت منها اثنتان واندثرت الباقيتان، وكانت الزخارف تتكون من مجموعات هندسية. ومن هذه المجموعات الهندسية تبقت زخارف أخرى، فيما بين بعض تواشيح عقود النوافذ والمقرنصات.

وأخيرًا يمتد فوق الإزار الكوفى فى باطن القبة الكروى، إزار مستدير آخر، يتكون من زخارف من أوراق أزهار ثلاثية الشحمات تنحصر فى تشكيلات من السيقان ثلاثية الدوائر، وتمتطى هذا الإزار مجموعات زخرفية غريبة المظهر، تتكون من ستة عقود منفوخة متجاورة، تتوسطها دائرة نجمية. وامتدت على العقود وأطرافها شرائط من الخط الكوفى.

□□□

(١) انظر (كريسويل)، «العمارة الإسلامية فى مصر» جزء أول، صفحة ٢٥٥.